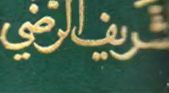


الطبرسي











الاحتجاج

تأليف

الحبر أبي منصور أحمد بن علي بن أبي

طالب الطبرسي

من علماء القرن السادس

منشورات الشريف الرضي



تأليف:

العلامة الخبير أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي

من علماء القرن السادس

انتشارات الشريف الرضي

فقال عليه السلام : «أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صرف عنه السوء ، وتخوّف الساعة الّتي من سار فيها حاق به الضر ؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب «القرآن» ، واستغنى عن الإستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه ، وينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يولّيك الحمد دون ربّه ، لأنّك بزعمك أنت هديته إلى الساعة الّتي نال فيها النفع وأمن الضر .

أيّها النّاس إيّاكم وتعلّم النّجوم ، إلّا ما يهتدى به في برّ أو بحر ، فإنّه يدعو إلى الكهانة ، المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النّار ، سيروا على اسم الله وعونه ، ومضى فظفر بمراده صلوات الله عليه .

احتجاجه عليه السلام على زنديق جاء مستدلاً عليه بآيٍ من «القرآن» متشابهة تحتاج إلى التاويل على أنّها تقتضي التناقض والإختلاف فيه وعلى امثاله في اشياء أُخرى

جاء بعض الزنادقة إلى أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام وقال له : لولا ما في «القرآن» من الإختلاف والتناقض لدخلت في دينكم .

فقال له عليه السلام : «وما هو» ؟

قال : قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[1] وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾[2] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[3] وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾[4] وقوله : ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾[6] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾[7] وقوله : ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾[8] وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا

---

(١) التوبة ٩٧.

(٢) الأعراف ٥١.

(٣) مريم ٦٤.

(٤) النبأ ٣٨.

(٥) الأنعام ٢٣.

(٦) العنكبوت ٢٥.

(٧) ص ٦٤.

(٨) ق ٢٨.

يَكْسِبُونَ ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة * إلى رَبِّهَا نَاظِرَة ﴾[٢] وقوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾[٣] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ ﴾[٤] وقوله : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ الآيتين[٥] وقوله : ﴿ ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً ﴾[٦] وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ عَنْ رَبِّهِمْ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[٧] وقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾[٨] وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرون ﴾[٩] وقوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾[١٠] وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾[١١] وقوله : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾[١٢] وقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَة ﴾[١٣] وقوله : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾[١٤] ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾[١٥] .

فقال له أميرالمؤمنين ﷺ : «فأمّا قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ إنّما يعني نسوا الله في دار الدّنيا ؛ لم يعملوا بطاعته ، فنسيهم الله في الآخرة أي لم يجعل لهم من ثوابه شيئاً ، فصاروا منسيين من الخير ، وكذلك تفسير قوله ﷻ : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ يعني بالنسيان أنّه لم يثيبهم كما يثيب أولياءه ، الّذين كانوا في دار الدّنيا مطيعين ذاكرين حين آمنوا به وبرسوله وخافوه بالغيب .

---

(١) يس ٦٥.

(٢) القيامة ٢٢.

(٣) الأنعام ١٠٣.

(٤) النجم ١٤.

(٥) النبأ ٣٨.

(٦) الشورى ٥١.

(٧) المطففين ١٥.

(٨) الأنعام ١٥٨.

(٩) السجدة ١٠.

(١٠) التوبة ٧٧.

(١١) الكهف ١١٠.

(١٢) الكهف ٥٣.

(١٣) الأنبياء ٤٧.

(١٤) المؤمنون ١٠٢.

(١٥) المؤمنون ١٠٣.

وأمّا قوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ فإنّ ربّنا تبارك وتعالى علوّاً كبيراً ليس بالّذي ينسى ، ولا يغفل ، بل هو الحفيظ العليم ، وقد تقول العرب : نسينا فلان فلا يذكرنا : أي إنّه لا يأمر لهم بخير ، ولا يذكرهم به» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله عزّ وجلّ : يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ وقوله : ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقوله عزّ وجلّ : ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ وقوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ وقوله : ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بالوَعِيد ﴾ وقوله : ﴿ اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فإنّ ذلك في مواطن غير واحد من مواطن ذلك اليوم الّذي كان مقداره خمسين ألف سنة ، المراد : يكفّر أهل المعاصي بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، والكفر في هذه الآية «البراءة» يقول : فيبرأ بعضهم من بعض ، ونظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾[١] وقول إبراهيم خليل الرحمن : ﴿ كَفَرْنا بِكُمْ ﴾[٢] يعني تبرّأنا منكم .

ثمّ يجتمعون في مواطن أُخر يبكون فيها ، فلو أنّ تلك الأصوات فيها بدت لأهل الدّنيا لأزالت جميع الخلق عن معايشهم ، وانصدعت قلوبهم إلّا ما شاء الله ، ولا يزالون يبكون حتّى يستنفدوا الدّموع ، ويفضوا إلى الدّماء .

ثمّ يجتمعون في موطن آخر فيستنطقون فيه ، فيقولون : ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وهؤلاء خاصّة هم : المقرّون في دار الدّنيا بالتوحيد ، فلا ينفعهم إيمانهم بالله لمخالفتهم رسله ، وشكّهم فيما أتَوا به عن ربّهم ، ونقضهم عهودهم في أوصيائهم ، واستبدالهم الّذي هو أدنى بالّذي هو خير ، فكذّبهم الله فيما انتحلوه من الإيمان بقوله : ﴿ أُنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم ﴾[٣] فيختم الله على أفواهم ، ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود ، فتشهد بكلّ معصية كانت منهم ، ثمّ يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم : ﴿ لِمَ شَهِدتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٤] .

ثمّ يجتمعون في موطن آخر فيفرّ بعضهم من بعض لهول ما يشاهدونه من صعوبة الأمر

---

(١) إبراهيم ٢٣.

(٢) الممتحنة ٤.

(٣) الأنعام ٢٤.

(٤) فصّلت ٢١.

وعظم البلاء ، فذلك قوله ﷺ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾[1] الآية.

ثمّ يجتمعون في موطن آخر يستنطق فيه أولياء الله وأصفياؤه ، فلا يتكلّم أحد إلّا مَن أذن له الرّحمان وقال صوابا ، فيقام الرّسل فيسألون عن تأدية الرسالة الّتي حملوها إلى أممهم ، وتُسْئَلُ الأُمم فتجحد كما قال الله تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] فيقولون : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ﴾[3] فتشهد الرسل رسول الله ﷺ فيشهد بصدق الرسل ، وتكذيب من جحدها من الأُمم ، فيقول ـ لكلّ أمّة منهم ـ : بلى ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] أي : مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم ، كذلك قال الله ـ لنبيّه ـ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاَءِ شَهِيداً ﴾[5] فلا يستطيعون ردّ شهادته ، خوفا من أن يختم الله على أفواههم ، وأن تشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون ، ويشهد على منافقي قومه ، وأُمّته ، وكفّارهم بإلحادهم ، وعنادهم ، ونقضهم عهده ، وتغييرهم سنّته ، وإعتدائهم على أهل بيته ، وانقلابهم على أعقابهم ، وارتدادهم على أدبارهم ، واحتذائهم في ذلك سنّة من تقدّمهم من الأُمم الظالمة ، الخائنة لأنبيائها ، فيقولون بأجمعهم : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ﴾[6] .

ثمّ يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمّد ﷺ وهو : «المقام المحمود» فيثني على الله بما لم يثن عليه أحد قبله ، ثمّ يثني على الملائكة كلّهم ، فلا يبقى ملك إلّا أثنى عليه محمّد ، ثمّ يثني على الأنبياء بما لم يثن عليهم أحد قبله ، ثمّ يثني على كلّ مؤمن ومؤمنة ، يبدأ بالصدّيقين والشهداء ثمّ الصالحين ، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرضين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾[7] فطوبى لمن كان له في ذلك المكان حظّ ونصيب ، وويل لمن لم يكن له في ذلك المقام حظّ ولا نصيب .

---

(١) عبس ٣٤ـ٣٦.
(٢) الأعراف ٦.
(٣) المائدة ١٩.
(٤) المائدة ١٩.
(٥) النساء ٤١.
(٦) المؤمنون ١٠٦.
(٧) الإسراء ٧٩.

ثمّ يجتمعون في موطن آخر ويزال بعضهم عن بعض ، وهذا كلّه قبل الحساب ، فإذا أخذ في الحساب شغل كلّ إنسان بما لديه ، نسأل الله بركة ذلك اليوم» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ذلك في موضع ينتهي فيه أولياء الله عزّ وجلّ بعدما يفرغ من الحساب ، إلى نهر يسمّى : «نهر الحيوان» فيغتسلون منه ، ويشربون من آخر فتبيضّ وجوههم ، فيذهب عنهم كلّ أذى وقذى ووعث ، ثمّ يُؤمرون بدخول الجنّة ، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربّهم كيف يثيبهم ، ومنه يدخلون الجنّة ، فذلك قول الله عزّ وجلّ ـ في تسليم الملائكة عليهم ـ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾(١) فعند ذلك قوله تعالى : أثيبوا بدخول الجنّة والنظر إلى ما وعدهم الله عزّ وجلّ ، فلذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ والناظرة في بعض اللغة هي : المنتظرة ، ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾(٢) أي : منتظرة بم يرجع المرسلون ؟ .

وأمّا قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾ يعني : محمّداً كان عند سدرة المنتهى حيث لا يجاوزها خلق من خلق الله عزّ وجلّ ، وقوله ـ في آخر الآية ـ : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾(٣) رأى جبرئيل في صورته مرّتين : هذه المرّة ، ومرّة أُخرى وذلك أنّ خلق جبرئيل خلق عظيم ، فهو من الروحانيين الذين لا يدرك خلقهم ولا صفتهم إلّا الله ربّ العالمين» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ كذلك قال الله تعالى قد كان الرسول يوحي إليه رسل من السماء فتبلغ رسل السماء إلى الأرض وقد كان الكلام بين رسل أهل الأرض وبينه غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «يا جبرئيل هل رأيت ربّك» ؟ فقال جبرئيل : إنّ ربّي لا يُرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «من أين تأخذ الوحي» ؟ قال : آخذه من إسرافيل . قال : «ومن أين يأخذه إسرافيل» ؟ قال : يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين . قال : «ومن أين يأخذه ذلك الملك» ؟ قال : يقذف في قلبه قذفاً ؛ فهذا وحي ، وهو كلام الله عزّ وجلّ ، وكلام الله ليس بنحو واحد ، منه : ما كلّم

(١) الزمر ٧٣.

(٢) النمل ٣٥.

(٣) النجم ١٧ ـ ١٨.

الله به الرسل ، ومنه ما قذف في قلوبهم ، ومنه رؤيا يراها الرسل ، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ فهو كلام الله ﷻ» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ فإنّما يعني به يوم القيامة عن ثواب ربّهم لمحجوبون .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ يخبر محمّداً عن المشركين والمنافقين ، الّذين لم يستجيبوا لله ولرسوله ، فقال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ حيث لم يستجيبوا لله ولرسوله ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ يعني بذلك العذاب ، يأتيهم في دار الدنيا كما عذّب القرون الأُولى ، فهذا خبر يخبر به النبيّ ﷺ عنهم ، ثمّ قال : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾[1] الآية ، يعني لم تكن آمنت من قبل أن تأتي هذه الآية ، وهذه الآية هي طلوع الشمس من مغربها ، وقال -في آية أُخرى- : ﴿ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[2] يعني أرسل عليهم عذاباً ، وكذلك إتيانه بنيانهم حيث قال : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[3] يعني أرسل عليهم العذاب» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله ﷻ : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُون ﴾ وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾[4] وقوله : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحَاً ﴾ يعني : البعث ، فسمّاه الله لقاء ، كذلك قوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَآتٍ ﴾[5] يعني من كان يؤمن أنّه مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب ، فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية ، واللقاء هو البعث، وكذلك : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾[6] يعني أنّه لا يزول الإيمان عن قلوبهم يوم يبعثون» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله ﷻ : ﴿ وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا ﴾ يعني تيقّنوا أنّهم يدخلونها ، وكذلك قوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾[7] وأمّا قوله ﷻ -للمنافقين- : ﴿ وَتَظُنُّونَ

---

(١) الأنعام ١٥٨.

(٢) الحشر ٢.

(٣) النحل ٢٦.

(٤) البقرة ٤٦.

(٥) العنكبوت ٥.

(٦) الأحزاب ٤.

(٧) الحاقه ٢٠.

بالله الظُّنُونَا ﴾[١] فهو ظنّ شكّ وليس ظنّ يقين ، والظنّ ظنّان : ظنّ شكٍّ وظنّ يقين ، فماكان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين ، وماكان من أمر الدّنيا فهو ظنّ شكٍّ» .

قال عليّ عليه السلام : «وأمّا قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَة فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ فهو : ميزان العدل ، يؤخذ به الخلايق يوم القيامة ، بدين الله تبارك وتعالى ، الخلايق بعضهم من بعض ، ويجزيهم بأعمالهم ، ويقتصّ للمظلوم من الظالم ، ومعنى قوله : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ فهو قلّة الحساب وكثرته ، والنّاس يومئذ على طبقات ومنازل ، فمنهم : من يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ، ومنهم الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب ، لأنّهم لم يتلبّسوا من أمر الدّنيا ، وإنّما الحساب هناك على من تلبّس بها هاهنا ، ومنهم من يحاسب على النقير والقطمير ويصير إلى عذاب السعير ، ومنهم أئمّة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ، ولا يُعبَؤ بهم بأمره ونهيه يوم القيامة وهم في جهنّم خالدون ، وتلفح وجوههم النّار ، وهم فيها كالحون» .

ومن سؤال هذا الزنديق أن قال : أجد الله يقول : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[٢] ومن موضع آخر يقول : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ﴾[٣] ﴿ وَالَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾[٤] ، وما أشبه ذلك ؛ فمرّة يجعل الفعل لنفسه ، ومرّة لملك الموت ، ومرّة للملائكة .

وأجده يقول : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَكُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾[٥] ويقول : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهْتَدىٰ ﴾[٦] أعلم في الآية الأُولى أنّ الأعمال الصالحة لا تكفّر ، وأعلم في الثانية أنّ الإيمان والأعمال الصالحة لا تنفع إلّا بعد الإهتداء .

وأجده يقول : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا ﴾[٧] فكيف يسأل الحيّ من الأموات قبل البعث والنّشور ؟

---

(١) الأحزاب ١٠.

(٢) السجدة ١١.

(٣) الزمر ٤٢.

(٤) النحل ٣٢.

(٥) الأنبياء ٩٤.

(٦) طه ٨٢.

(٧) الزخرف ٤٥.

وأجده يقول : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[١] فما هذه الأمانة ؟ ومن هذا الإنسان ؟ وليس من صفته العزيز العليم التلبيس على عباده .

وأجده قد شهر هفوات أنبيائه بقوله : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾[٢] ، وبتكذيبه نوحاً لمّا قال : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾[٣] بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِك ﴾[٤] ، وبوصفه إبراهيم بأنّه عَبَدَ كوكباً مرّة ، ومرّة قمراً ، ومرّة شمساً ، وبقوله في يوسف : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَولا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّه ﴾[٥] ،وبتهجينه موسى حيث قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْك قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ الآية[٦]، وببعثه على داود جبرئيل وميكائيل حيث تسوّرا المحراب ، وبحبسه يونس في بطن الحوت حيث ذهب مغضباً مذنباً ، وأظهر خطأ الأنبياء وزللهم ، ثم وارى اسم من اغترّ وفتن خلقاً وضلّ وأضلّ ، وكنّى عن أسمائهم في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾[٧] فَمَن هذا الظالم الّذي لم يذكر من اسمه ما ذكر من أسماء الأنبياء ؟

وأجده يقول : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[٨] و﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[٩] ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾[١٠] فمرّة يجيئهم ، ومرّة يجيئونه .

وأجده يخبر أنّه يتلو نبيّه شاهد منه ، وكان الّذي تلاه عبد الأصنام برهة من دهره .

وأجده يقول : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[١١] فما هذا النعيم الذي يُسئَل العباد عنه ؟

---

(١) الأحزاب ٧٢.
(٢) طه ١٢١.
(٣) هود ٤٥.
(٤) هود ٤٦.
(٥) يوسف ٢٤.
(٦) الأعراف ١٤٣.
(٧) الفرقان ٢٧ـ٢٩.
(٨) الفجر ٢٢.
(٩) الأنعام ١٥٨.
(١٠) الأنعام ٩٤.
(١١) التكاثر ٨.

وأجده يقول : ﴿ بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾[١] ما هذه البقيّة ؟

وأجده يقول : ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾[٢] و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[٣] ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾[٤] ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾[٥] ما معنى الجَنْب ، والوجه ، واليمين ، والشمال ، فإنّ الأمر في ذلك ملتبس جدّاً ؟

وأجده يقول : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[٦] ويقول : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾[٧] ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰه ﴾[٨] ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[٩] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[١٠] ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ الآية[١١] .

وأجده يقول : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاء ﴾[١٢] وليس يشبه القسط في اليتامى نكاح النّساء ، ولا كلّ النّساء أيتام فما معنى ذلك ؟

وأجده يقول : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾[١٣] فكيف يُظلَم الله ؟ ومَن هؤلاء الظلمة ؟

وأجده يقول : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَة ﴾[١٤] فما هذه الواحدة ؟

وأجده يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين ﴾[١٥] وقد أرى مخالفي الإسلام معتكفين على

---

(١) هود ٨٦.

(٢) الزمر ٥٦.

(٣) القصص ٢٨.

(٤) الواقعة ٣٧.

(٥) الواقعة ٤١.

(٦) طه ٥.

(٧) الملك ١٦.

(٨) الزخرف ٨٤.

(٩) الحديد ٤.

(١٠) ق ١٦.

(١١) المجادلة ٧.

(١٢) النساء ٣.

(١٣) الأعراف ١٦٠.

(١٤) سبأ ٤٦.

(١٥) الأنبياء ١٠٧.

باطلهم ، غير مقلعين عنه ، وأرى غيرهم من أهل الفساد مختلفين في مذاهبهم ، يلعن بعضهم بعضاً ، فأيّ موضع للرحمة العامّة لهم المشتملة عليهم ؟

وأجده قد بيّن فضل نبيّه على سائر الأنبياء ، ثمّ خاطبه في أضعاف ما أثنى عليه في الكتاب من الإزراء عليه ، وانتقاص محلّه ، وغير ذلك من تهجينه وتأنيبه ، ما لم يخاطب أحداً من الأنبياء ، مثل قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِين ﴾(١) وقوله : ﴿ لَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلا * إِذَنْ لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَياةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرا ﴾(٢) وقوله : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾(٣) وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾(٤) وقال : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(٥) ﴿ وَكُلَّ شيءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾(٦) فإذا كانت الأشياء تحصى في الإمام وهو وصيّ النّبيّ فالنّبيّ أولى أن يكون بعيداً من الصفة الّتي قال فيها : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾ وهذه كلّها صفات مختلفة ، وأحوال متناقضة ، وأُمور مشكلة ، فإن يكن الرّسول والكتاب حقّاً فقد هلكت لشكّي في ذلك ، وإن كانا باطلَين فما عَلَيّ من بأس .

فقال أميرالمؤمنين عليه السلام : «سبّوح قدّوس ، ربّ الملائكة والرّوح ، تبارك وتعالى ، هو الحيّ الدائم ، القائم على كلّ نفس بماكسبت ، هات أيضاً ما شككت فيه» .

قال : حسبي ما ذكرت يا أميرالمؤمنين .

قال : «سأُنبّئك بتأويل ما سألت ، وما توفيقي إلّا بالله ، عليه توكّلت وإليه أُنيب ، وعليه فليتوكّل المتوكّلون .

فأمّا قوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ ﴾ ﴿ وتَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾(٧) ﴿ وَالَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾(٨) فهو

---

(١) الأنعام ٣٥.
(٢) الإسراء ٧٤ـ٧٥.
(٣) الأحزاب ٣٧.
(٤) الأحقاف ٩.
(٥) الأنعام ٣٨.
(٦) يس ١٢.
(٧) الأنعام ٦١.
(٨) النساء ٩٧.

تبارك وتعالى أجلّ واعظم من أن يتولّى ذلك بنفسه ، وفعل رسله وملائكته فعله ، لأنّهم بأمره يعملون ، فأصطفى جلّ ذكره من الملائكة رسلاً وسَفَرة بينه وبين خلقه ، وهم الّذين قال الله فيهم : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾(١) فمن كان من أهل الطاعة تولّت قبض روحه ملائكة الرحمة ، ومن كان من أهل المعصية تولّت قبض روحه ملائكة النقمة ، ولملك الموت أعوان من ملائكة الرحمة والنقمة ؛ يصدرون عن أمرهم ، وفعلهم فعله ، وكلّ ما يأتون منسوب إليه ، وإذا كان فعلهم فعل ملك الموت ، وفعل ملك الموت فعل الله ، لأنّه يتوفّى الأنفس على يد من يشاء ، ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب على يد من يشاء ، وإن فعل اُمنائه فعله ، كما قال : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾(٢) .

وأمّا قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ فإنّ ذلك كلّه لا يغني إلّا مع الاهتداء ، وليس كلّ من وقع عليه اسم الإيمان كان حقيقاً بالنجاة ممّا هلك به الغواة ، ولو كان ذلك كذلك لنجت اليهود مع اعترافها بالتوحيد ، وإقرارها بالله ، ونجى ساير المقرّين بالوحدانيّة من إبليس فمن دونه في الكفر ، وقد بيّن الله ذلك بقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٣) وبقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾(٤) وللإيمان حالات ومنازل يطول شرحها ، ومن ذلك : إنّ الإيمان قد يكون على وجهين : إيمان بالقلب ، وإيمان باللسان ، كما كان إيمان المنافقين على عهد رسول الله لمّا قهرهم بالسيف وشملهم الخوف فإنّهم آمنوا بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ؛ فالإيمان بالقلب هو التسليم للرب ، ومن سلّم الاُمور لمالكها لم يستكبر عن أمره ، كما استكبر إبليس عن السجود لآدم ، واستكبر أكثر الاُمم عن طاعة أنبيائهم ، فلم ينفعهم التوحيد كما لم ينفع إبليس ذلك السجود الطويل ، فإنّه سجد سجدة واحدة أربعة آلاف عام ، ولم يرد بها غير زخرف الدّنيا ، والتمكين من النظرة ، فلذلك لا تنفع الصلاة والصدقة إلّا مع الإهتداء إلى سبيل النجاة ، وطرق الحق ، وقد قطع الله عذر عباده بتبيين آياته ، وإرسال رسله ، لئلّا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل ، ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج إليه الخليقة ، ومتعلّم على سبيل النجاة ، أولئك هم

---

(١) الحج ٧٥.

(٢) الإنسان ٣٠.

(٣) الأنعام ٨٢.

(٤) المائدة ٤١.

الأقلّون عدداً ، وقد بيّن الله ذلك في أُمم الأنبياء وجعلهم مثلاً لمن تأخر ، مثل قوله ـ في قوم نوح : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل ﴾[1] ، وقوله ـ فيمن آمن من أُمّة موسى ـ : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[2] وقوله ـ في حواري عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3] يعني بأنّهم مسلّمون لأهل الفضل فضلهم ، ولا يستكبرون عن أمر ربّهم ، فما أجابه منهم إلّا الحواريّون ، وقد جعل الله للعلم أهلاً ، وفرض على العباد طاعتهم بقوله : ﴿ أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[4] وبقوله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي ٱلأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[5] وبقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾[6] وبقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾[7] ﴿ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا ﴾[8] والبيوت هي بيوت العلم الّذي استودعته الأنبياء ، وأبوابها أوصياؤهم ، فكلّ من عمل من أعمال الخير فجرى على غير أيدي أهل الإصطفاء ، وعهودهم ، وشرائعهم ، وسننهم ، ومعالم دينهم ، مردود غير مقبول ، وأهله بمحلّ كفر ، وإن شملتهم صفة الإيمان ، ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ ٱلصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾[9] فمن لم يهتد من أهل الإيمان إلى سبيل النجاة لم يغن عنه إيمانه بالله مع دفع حقّ أوليائه ، وحبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وكذلك قال الله سبحانه : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[10] وهذا كثير في كتاب الله ﷻ ، والهداية هي الولاية كما قال الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ

---

(١) هود ٤٠.

(٢) الأعراف ١٥٩.

(٣) آل عمران ٥٢.

(٤) النساء ٥٩.

(٥) النساء ٨٣.

(٦) التوبة ١١٩.

(٧) آل عمران ٧.

(٨) البقرة ١٨٩.

(٩) التوبة ٥٤.

(١٠) غافر ٨٥.

ٱلْغَالِبُونَ ﴾(١) والّذين آمنوا في هذا الموضع هم المؤتمنون على الخلائق من الحجج ، والأوصياء ، في عصر بعد عصر ، وليس كلّ من أقرّ أيضاً من أهل القبلة بالشهادتين كان مؤمناً ، إنّ المنافقين كانوا يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ، ويدفعون عهد رسول الله بما عهد به من دين الله ، وعزائمه ، وبراهين نبوّته إلى وصيّه ، ويضمرون من الكراهة لذلك ، والنقض لما أبرمه منه عند إمكان الأمر لهم ، فيما قد بيّنه الله لنبيه بقوله : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(٢) بقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾(٣) ومثل قوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾(٤) أي : لتسلكنّ سبيل من كان قبلكم من الأُمم ؛ في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء ، وهذا كثير في كتاب الله ﷻ ، وقد شقّ على النّبيّ ما يؤلّ إليه عاقبة أمرهم ، وأطاع الله إيّاه على بوارهم ، فأوحى الله ﷻ إليه : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾(٥) ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ﴾(٦) .

وأمّا قوله : ﴿ وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا ﴾ فهذا من براهين نبيّنا الّتي آتاه الله إيّاها ، وأوجب به الحجّة على سائر خلقه ، لأنّه لمّا ختم به الأنبياء ، وجعله الله رسولاً إلى جميع الأُمم ، وسائر الملل ، خصّة الله بالإرتقاء إلى السماء عند المعراج ، وجمع له يومئذٍ الأنبياء ، فعلم منهم ما أُرسلوا به وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه ، وأقرّوا أجمعين بفضله ، وفضّل الأوصياء والحجج في الأرض من بعده ، وفضل شيعة وصيّه من المؤمنين والمؤمنات ، الّذي سلّموا لأهل الفضل فضلهم ، ولم يستكبروا عن أمرهم ، وعرف من أطاعهم وعصاهم من أُممهم ، وسائر من مضى ومن غبر ، أو تقدّم أو تأخّر .

وأمّا هفوات الأنبياء وما بيّنه الله في كتابه ، ووقوع الكناية من أسماء من اجترم أعظم ممّا اجترمته الأنبياء ، ممّن شهد الكتاب بظلمهم ، فإنّ ذلك من أدلّ الدلائل على حكمة الله ﷻ الباهرة ، وقدرته القاهرة ، وعزّته الظاهرة لأنّه علم أنّ براهين الأنبياء تكبر في صدور أُممهم ، وإنّ

---

(١) المائدة ٥٦.

(٢) النساء ٦٥.

(٣) آل عمران ١٤٤.

(٤) الإنشقاق ١٩.

(٥) فاطر ٨.

(٦) المائدة ٦٨.

منهم من يتّخذ بعضهم إلهاً ،كالذي كان من النصارى في ابن مريم ، فذكرها دلالة على تخلّفهم عن الكمال الّذي تفرّد به ﷺ ، ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى حيث قال فيه وفي اُمّه : ﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعامَ ﴾[١] يعني أنّ من أكل الطعام كان له ثُفل[٢] ، ومن كان له ثُفل فهو بعيد ممّا ادّعته النصارى لابن مريم ، ولم يكنّ عن أسماء الأنبياء تبجّراً وتعزّزاً[٣] بل تعريفاً لأهل الإستبصار .

إنّ الكناية عن أسماء أصحاب الجرائر العظيمة من المنافقين في «القرآن» ليست من فعله تعالى ، وإنّها من فعل المغيّرين والمبدّلين ، الّذين جعلوا «القرآن» عضين ، واعتاضوا الدّنيا من الدّين ، وقد بيّن الله تعالى قصص المغيّرين بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾[٤] وبقوله : ﴿ وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بالْكِتَابِ ﴾[٥] وبقوله : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[٦] بعد فقد الرسول ممّا يقيمون به أود باطلهم[٧] حسب ما فعلته اليهود والنّصارى بعد فقد موسى وعيسى من تغير «التوراة» و«الإنجيل» ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وبقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ المشركونَ ﴾[٨] يعني أنّهم أثبتوا في الكتاب ما لم يقله الله ليلبسوا على الخليقة ، فأعمى الله قلوبهم حتّى تركوا فيه ما دلّ على ما أحدثه فيه ، وبيّن عن إفكهم ، وتلبيسهم ، وكتمان ما عملوه منه ، ولذلك قال لهم : ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾[٩] وضرب مثلهم بقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلأَرْضِ ﴾[١٠] ؛ فالزبد في هذا الموضع كلام الملحدين الّذين أثبتوا في «القرآن» فهو يضمحلّ ويبطل ويتلاشى عند التحصيل ، والّذي ينفع النّاس منه فالتنزيل الحقيقي

---

(١) المائدة ٧٥.

(٢) الثُفل ـ بضم مثلثه وكسرها ـ: النجاسة .

(٣) البجر : العيب ، والتعزيز : اللوم والتأديب .

(٤) البقرة ٧٩.

(٥) آل عمران ٧٨.

(٦) النساء ١٠٨.

(٧) الأود : الإعوجاج .

(٨) التوبة ٣٢، الصف ٨.

(٩) آل عمران ٧١.

(١٠) الرعد ١٧.

الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، والقلوب تقبله ، والأرض في هذا الموضع فهي محلّ العلم وقراره .

وليس يسوغ مع عموم التقيّة التصريح بأسماء المبدّلين ، ولا الزيادة في آياته على ما أثبتوه من تلقائهم في الكتاب ، لما في ذلك من تقوية حجج أهل التعطيل والكفر ، والملل المنحرفة عن قبلتنا ، وإبطال هذا العلم الظاهر الّذي قد استكان له الموافق والمخالف بوقوع الإصطلاح على الإيتمار لهم ، والرضا بهم ، ولأنّ الباطل في القديم والحديث أكثر عدداً من أهل الحق ، فلأنّ الصبر على ولاة الأمر مفروض لقول الله عزّ وجلّ لنبيّه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1] وإيجابه مثل ذلك على أوليائه ، وأهل طاعته ، بقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] فحسبك من الجواب عن هذا الموضع ما سمعت ، فإنّ التقيّة تخطر التصريح بأكثر منه .

وأمّا قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ وقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ فذلك كلّه حقّ ، وليست جيئته جلّ ذكره كجيئة خلقه ، فإنّه ربّ كلّ شيء . ومن كتاب الله عزّ وجلّ يكون تأويله على غير تنزيله ، ولا يشبه تأويله بكلام البشر ، ولا فعل البشر ، وسأُنبئك بمثال لذلك تكتفي به إنشاء الله تعالى ؛ وهو حكاية الله عزّ وجلّ عن إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾[3] فذهابه إلى ربّه توجّهه إليه في عبادته واجتهاده ، ألا ترى أنّ تأويله غير تنزيله ، وقال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾[4] وقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾[5] ؛ فإنزاله ذلك خلقه إيّاه . وكذلك قوله : ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ ﴾[6] أي الجاحدين ، والتأويل في هذا القول باطنه مضادّ لظاهره .

ومعنى قوله : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ فإنّما خاطب نبيّنا محمّداً صلّى الله عليه وآله هل ينتظر المنافقون والمشركون إلّا أن تأتيهم الملائكة فيعاينوهم ، أو يأتي ربّك أو يأتي بعض آيات ربّك ، يعني بذلك : أمر ربّك ، والآيات هي العذاب في دار الدّنيا ،

---

(١) الأحقاف ٣٥.

(٢) الأحزاب ٢١.

(٣) الصافّات ٩٩.

(٤) الزمر ٦.

(٥) الحديد ٢٥.

(٦) الزخرف ٨١.

كما عذّب الأُمم السالفة ، والقرون الخالية ، وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[١] يعني بذلك : ما يهلك من القرون فسمّاه إتياناً ، وقال : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٢] أي لعنهم الله أنّى يؤفكون ؛ فسمّى اللعنة قتالاً ، وكذلك قال : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾[٣] أي لُعِن الإنسان ، وقال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾[٤] فسمّى فعل النّبيّ ﷺ فعلاً له ، ألا ترى تأويله على غير تنزيله ؟ ومثل قوله : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾[٥] فسمّى البعث : لقاء ، وكذلك قوله : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾[٦] أي يوقنون أنّهم مبعوثون ، ومثله قوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٧] أي ليس يوقنون أنّهم مبعوثون ، واللقاء عند المؤمن : البعث ، وعند الكافر المعاينة والنظر . وقد يكون بعض ظنّ الكافر يقيناً ، وذلك قوله : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي تيقّنوا أنّهم مواقعوها .

وأمّا قوله في المنافقين : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ فليس ذلك بيقين ولكنّه شكّ ، فاللفظ واحد في الظاهر ، ومخالف في الباطن ، وكذلك قوله : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ يعني استوى تدبيره وعلا أمره ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فإنّما أراد بذلك استيلاء أُمنائه بالقدرة الّتي ركّبها فيهم على جميع خلقه ، وإنّ فعله فعلهم .

فافهم عنّي ما أقول لك ، فإنّي إنّما أزيدك في الشرح لأُثلّج في صدرك وصدر من لعلّه بعد اليوم يشكّ في مثل ما شككت فيه ، فلا يجد مجيباً عمّا يسأل عنه ، لعموم الطغيان ، والإفتتان ، واضطرار أهل العلم بتأويل الكتاب ، إلى الإكتتام والإحتجاب ، خيفة أهل الظلم والبغي . أمّا إنّه سيأتي على النّاس زمان يكون الحقّ فيه مستوراً ، والباطل ظاهراً مشهوراً ، وذلك إذا كان أولى النّاس به أعدائهم له ، واقترب الوعد الحق ، وعظم الإلحاد ، وظهر الفساد ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا

---

(١) الرعد ٤١.

(٢) التوبة ٣٠.

(٣) عبس ١٧.

(٤) الأنفال ١٧.

(٥) السجدة ١٠.

(٦) البقرة ٤٦.

(٧) المطفّفين ٤ـ٥.

زلزالاً شديداً ، ونحلهم الكفّار أسماء الأشرار ، فيكون جهد المؤمن أن يحفظ مهجته من أقرب النّاس إليه ، ثمّ يتيح الله الفرج لأوليائه ، ويظهر صاحب الأمر على أعدائه .

وأمّا قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾(١) فذلك حجّة الله أقامها على خلقه ، وعرّفهم أنّه لا يستحقّ مجلس النّبي إلّا من يقوم مقامه ، ولا يتلوه إلّا من يكون في الطهارة مثله ، لئلّا يتّسع لمن ماسّه حسّ الكفر في وقت من الأوقات انتحال الإستحقاق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليضيق العذر على من يعينه على إثمه وظلمه ، إذ كان الله قد خطر على من ماسّه الكفر تقلّد ما فوّضه إلى أنبيائه وأوليائه ، بقوله لإبراهيم : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ ﴾(٢) أي المشركين ، لأنّه سمّى الظلم شركاً بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٣) فلمّا علم إبراهيم عليه السلام أنّ عهد الله تبارك وتعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام ، قال : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾(٤) .

واعلم أنّ من آثر المنافقين على الصادقين ، والكفّار على الأبرار ، فقد افترى إثماً عظيماً ، إذا كان قد بيّن في كتابه الفرق بين المحقّ والمبطل ، والطاهر والنجس ، والمؤمن والكافر ، وأنّه لا يتلوا النّبيّ عند فقده إلّا من حلّ محلّه صدقاً وعدلاً ، وطهارة وفضلاً .

وأمّا الأمانة الّتي لا تجب ولا تجوز أن تكون إلّا في الأنبياء وأوصيائهم ، لأنّ الله تبارك وتعالى ائتمنهم على خلقه ، وجعلهم حججاً في أرضه ، والسامري ومن أجمع معه وأعانه من الكفّار على عبادة العجل عند غيبة موسى ما تمّ انتحال محلّ موسى من الطغام(٥) ، والإحتمال لتلك الأمانة الّتي لا ينبغي إلّا لطاهر من الرجس ، فاحتمل وزرها ووزر من سلك سبيله من الظالمين وأعوانهم ، ولذلك قال النّبيّ صلى الله عليه وآله : «ومن استنّ سنّة حقّ كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن استنّ بسنّة باطل كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» ، ولهذا القول من النّبيّ صلى الله عليه وآله شاهد من كتاب الله وهو قول الله عزّ وجلّ في قصّة هابيل قاتل أخيه : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ

---

(١) هود ١٧.

(٢) البقرة ١٢٤.

(٣) لقمان ١٣.

(٤) إبراهيم ٣٥.

(٥) الطغام : أوغاد الناس .

جَمِيعاً ﴾(١) وللإحياء في هذا الموضع تأويل في الباطن ليس كظاهره ، وهو من هَداها ، لأنّ الهداية هي حياة الأبد ، ومن سمّاه الله حيّاً لم يمت أبداً ، إنّما ينقله من دار محنة إلى دار راحة ومنحة .

وأمّا ماكان من الخطاب بالإنفراد مرّة ، وبالجمع مرّة ، من صفة الباري جلّ ذكره ، فإنّ الله تبارك وتعالى اسمه ، على ما وصف به نفسه بالإنفراد والوحدانيّة هو النّور الأزلي القديم الّذي ليس كمثله شيء ، لا يتغيّر ، ويحكم ما يشاء ويختار ، ولا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، ولا ما خلق زاد في ملكه وعزّه ، ولا نقص منه ما لم يخلقه ، وإنّما أراد بالخلق إظهار قدرته ، وإبداء سلطانه ، وتبيين براهين حكمته ، فخلق ما شاء كما شاء ، وأجرى فعل بعض الأشياء على أيدي من اصطفى من أُمنائه ، وكان فعلهم فعله ، وأمرهم أمره ، كما قال : ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ ﴾(٢) وجعل السماء والأرض وعاء لمن يشاء من خلقه ، ليميز الخبيث من الطيّب ، مع سابق علمه بالفريقين من أهلها ، وليجعل ذلك مثالاً لأوليائه وأُمنائه ، وعرّف الخليقة فضل منزلة أوليائه ، وفرض عليهم من طاعتهم مثل الّذي فرضه منه لنفسه ، وألزمهم الحجّة بأن خاطبهم خطاباً يدلّ على انفراده وتوحّده ، وبأنّ له أولياء تجري أفعالهم وأحكامهم مجرى فعله ، فهم : العباد المكرمون ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾(٣) هو الّذي(٤) أيّدهم بروح منه ، وعرّف الخلق اقتدارهم على علم الغيب بقوله : ﴿ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾(٥) وهم : النعيم الذى يُسئَل العباد عنه ، لأنّ الله تبارك وتعالى أنعم بهم على من اتّبعهم من أوليائهم» .

قال السّائل : من هؤلاء الحجج ؟

قال ﷺ : «هم رسول الله ، ومن حلّ محلّه من أصفياء الله الّذين قرنهم الله بنفسه ورسوله ، وفرض على العباد من طاعتهم مثل الّذي فرض عليهم منها لنفسه ، وهم ولاة الأمر الّذين قال الله فيهم : ﴿ أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وقال فيهم : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾» .

قال السائل : ما ذاك الأمر ؟

---

(١) المائدة ٣٢.

(٢) النساء ٨٠.

(٣) الأنبياء ٢٧.

(٤) في بعض النسخ «وهم الّذين».

(٥) الجن ٢٦ـ٢٧.

قال عليه السلام : «الّذي به تنزّل الملائكة في الليلة الّتي يفرق فيها كلّ أمر حكيم من : خلق ، ورزق ، وأجل ، وعمل ، وعمر ، وحياة وموت ، وعلم غيب السماوات والأرض ، والمعجزات الّتي لا تنبغي إلاّ لله وأصفيائه والسَفَرة بينه وبين خلقه ، وهم وجه الله الّذي قال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾[١] هم بقيّه الله يعني المهدي يأتي عند انقضاء هذه النظرة ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، ومن آياته : الغيبة والإكتتام عند عموم الطغيان وحلول الإنتقام ، ولو كان هذا الأمر الّذي عرّفتك بأنّه للنبيّ دون غيره ، لكان الخطاب يدلّ على فعل ماض ، غير دائم ولا مستقبل ، ولقال : «نزلت الملائكة» و«فرّق كلّ أمر حكيم» ولم يقل : «تنزّل الملائكة» «ويفرق فيها كلّ أمر حكيم»وقد زاد جلّ ذكره في التبيان وإثبات الحجّة بقوله ـ في أصفيائه وأوليائه عليهم السلام ـ : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾ تعريفاً للخليقة قربهم ، ألا ترى أنّك تقول : «فلان إلى جنب فلان» إذا أردت أن تصف قربه منه ؟

وإنّما جعل الله تبارك وتعالى في كتابه هذه الرموز الّتي لا يعلمها غيره وغير أنبيائه وحججه في أرضه ، لعلمه بما يحدّثه في كتابه المبدّلون من إسقاط أسماء حججه منه ، وتلبيسهم ذلك على الاُمّة ليعينوهم على باطلهم ، فأثبت به الرموز ، وأعمى قلوبهم وأبصارهم ، لما عليهم في تركها وترك غيرها ، من الخطاب الدالّ على ما أحدثوه فيه ، وجعل أهل الكتاب المقيمين به ، والعاملين بظاهره وباطنه من : شجرة ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[٢] ؛ اي يظهر مثل هذا العلم لمحتمليه في الوقت بعد الوقت ، وجعل أعدائها : أهل الشجرة الملعونة الّذين حاولوا إطفاء نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ، ولو علم المنافقون لعنهم الله ما عليهم من ترك هذه الآيات الّتي بيّنتُ لك تأويلها ، لأسقطوها مع ما أسقطوا منه ، ولكن الله تبارك اسمه ماض حكمه بإيجاب الحجّة على خلقه ،كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[٣] أغشى أبصارهم ، وجعل على قلوبهم أكنّة عن تأمّل ذلك ، فتركوه بحاله ، وحجبوا عن تأكيد الملتبس بإبطاله ؛ فالسعداء ينبهون عليه ، والأشقياء يعمون عنه ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ثمّ إنّ الله جلّ ذكره لسعة رحمته ، ورأفته بخلقه ، وعلمه بما يحدثه المبدّلون من تغيير كتابه ،

---

(١) البقرة ١١٥.

(٢) إبراهيم ٢٤ـ٢٥.

(٣) الأنعام ١٤٩.

قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلّا من صفى ذهنه، ولطف حسّه، وصحّ تميزه، ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلّا الله وأُمناؤه، والراسخون في العلم، وإنّما فعل الله ذلك لئلّا يدّعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب ما لم يجعل الله لهم، وليقودهم الإضطرار إلى الإيتمار لمن ولّاه أمرهم، فاستكبروا عن طاعته، تعزّزاً[1] وافتراء على الله ﷻ، واغتراراً بكثرة من ظاهرهم، وعاونهم، وعاند الله ﷻ ورسوله.

فأمّا ما علمه الجاهل والعالم، من فضل رسول الله في كتاب الله، فهو قول الله ﷻ: ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[2] ولهذه الآية ظاهر وباطن؛ فالظاهر قوله: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ والباطن قوله: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ أي سلّموا لمن وصّاه واستخلفه، وفضّله عليكم، وما عهد به إليه تسليماً، وهذا ممّا أخبرتكُ أنّه لا يعلم تأويله إلّا من لطف حسّه، وصفى ذهنه، وصحّ تمييزه، وكذلك قوله: ﴿ سَلامٌ عَلَى آلِ يس ﴾[3] لأنّ الله سمّى به النّبيّ ﷺ حيث قال: ﴿ يس * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4] لعلمه بأنّهم يسقطون قول الله: «سلام على آل محمّد» كما أسقطوا غيره، وما زال رسول الله ﷺ يتألّفهم، ويقرّبهم، ويجلسهم عن يمينه وشماله، حتّى أذن الله ﷻ في إبعادهم بقوله: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾[5] وبقوله: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾[6] وكذلك قول الله ﷻ: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[7] ولم يسمّ بأسمائهم، وأسماء آبائهم وأُمّهاتهم.

وأمّا قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ ﴾ فإنّما أُنزلت كلّ شيء هالك إلّا دينه، لأنّه من المحال أن يهلك منه كلّ شيء ويبقى الوجه، هو أجلّ وأكرم وأعظم من ذلك، إنّما يهلك من ليس منه، ألا

---

(١) أي: تمنّعاً وتمرّداً.

(٢) الأحزاب ٥٦.

(٣) الصافّات ١٣٠.

(٤) يس ١ ـ ٣.

(٥) المزّمّل ١٠.

(٦) المعارج ٣٦ ـ ٣٩.

(٧) الإسراء ٧١.

ترى أنّه قال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[1] ؛ ففصل بين خلقه ووجهه .

وأمّا ظهورك على تناكر قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ وليس يشبه القسط في اليتامى نكاح النّساء ، ولا كلّ النّساء أيتام ، فهو ممّا قدّمت ذكره من إسقاط المنافقين من «القرآن» ، وبين القول في اليتامى وبين نكاح النساء من الخطاب والقصص أكثر من ثلث «القرآن» ، وهذا وما أشبهه ممّا ظهرت حوادث المنافقين فيه لأهل النظر والتأمّل ، ووجد المطّلعون وأهل الملل المخالفة للإسلام مساغاً إلى القدح في «القرآن» ، ولو شرحت لك كلّما أُسقط وحُرِّفَ وبُدِّل ممّا يجري هذا المجرى لطال ، وظهر ما تخطر التقيّة إظهاره من مناقب الأولياء ، ومثالب الأعداء .

وأمّا قوله : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فهو تبارك اسمه أجلّ وأعظم من أن يظلم ، ولكن قرن أُمناءه على خلقه بنفسه ، وعرّف الخليقة جلالة قدرهم عنده ، وأنّ ظلمهم ظلمه ، بقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ ببغضهم أولياءنا ومعونة أعدائهم عليهم ﴿ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إذ حرّموها الجنّة ، وأوجبوا عليها خلود النّار .

وأمّا قوله : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ فإنّ الله جلّ ذكره نزل عزائم الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة ، كما خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ، ولو شاء لخلقها في أقلّ من لمح البصر ، ولكنّه جعل الأناة والمداراة أمثالاً لأُمنائه ، وإيجاباً للحجّة على خلقه ، فكان أوّل ما قيّدهم به الإقرار بالوحدانيّة والربوبيّة والشهادة بأن لا إله إلّا الله ، فلمّا أقرّوا بذلك تلاه بالإقرار لنبيّه صلى الله عليه وآله بالنبوّة والشهادة له بالرسالة ، فلمّا انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة ، ثمّ الصوم ، ثمّ الحجّ ، ثمّ الجهاد ، ثمّ الزّكاة ، ثمّ الصّدقات ، وما يجري مجراها من مال الفيئ ، فقال المنافقون : هل بقي لربّك علينا بعد الّذي فرضه شيء آخر يفترضه ، فتذكره لتسكن أنفسنا إلى أنّه لم يبق غيره ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ يعني : الولاية ، وأنزل : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[2] وليس بين الأُمّة خلاف أنّه لم يؤت الزكاة يومئذٍ أحد وهو راكع غير رجل ، ولو ذكر اسمه في الكتاب لأُسقط مع ما أُسقط من ذكره ، وهذا وما

(١) الرحمن ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) المائدة ٥٥.

أشبهه من الرموز الّتي ذكرت لك ثبوتها في الكتاب ، ليجهل معناها المحرّفون فيبلغ إليك وإلى أمثالك ، وعند ذلك قال الله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[١] .

وأمّا قوله للنّبيّ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وإنّك ترى أهل الملل المخالفة للإيمان ومن يجري مجراهم من الكفّار مقيمين على كفرهم إلى هذه الغاية ، وأنّه لو كان رحمة عليهم لاهتدوا جميعاً ونجوا من عذاب السّعير ، فإنّ الله تبارك وتعالى إنّما عنى بذلك أنّه جعله سبباً لإنظار أهل هذه الدار ، لأنّ الأنبياء قبله بُعثوا بالتصريح لا بالتعريض ، وكان النّبيّ ﷺ منهم إذا صدع بأمر الله وأجابه قومه سلموا وسلم أهل دارهم من سائر الخليقة ، وإن خالفوه هلكوا وهلك أهل دارهم بالآفة الّتي كان نبيّهم يتوعّدهم بها ، ويخوّفهم حلولها ونزولها بساحتهم ، من : خسف ، أو قذف ، أو رجف ، أو ريح ، أو زلزلة ، أو غير ذلك من أصناف العذاب الّتي هلكت بها الأُمم الخالية . وإنّ الله علم من نبيّنا ﷺ ومن الحجج في الأرض : الصبر على ما لم يطق من تقدّمهم من الأنبياء الصبر على مثله ؛ فبعثه الله بالتعريض لا بالتصريح ، وأثبت حجّة الله تعريضاً لا تصريحاً بقوله -في وصيّه- : «من كنت مولاه فهذا مولاه» . ، و : «هو منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» وليس من خليقة النّبيّ ولا من النبوّة أن يقول قولاً لا معنى له ، فلزم الأُمّة أن تعلم أنّه لمّا كانت النبوّة والأُخوّة موجودتين في خلقة هارون ، ومعدومتين فيمن جعله الله النّبيّ ﷺ بمنزلته أنّه قد استخلفه على أُمّته كما استخلف موسى هارون ، حيث قال له : ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾[٢] ولو قال لهم : لا تقلّدوا الإمامة إلّا فلاناً بعينه وإلّا نزل بكم العذاب ، لأتاهم العذاب وزال باب الإنظار والإمهال .

وبما أمر بسدّ باب الجميع وترك بابه ، ثمّ قال : ما سددت ولا تركت ولكنّي أُمرت فأطعت ، فقالوا : سددت بابنا وتركت لأحدثنا سنّاً .

فأمّا ما ذكروه من حداثة سنّه ، فإنّ الله لم يستصغر يوشع بن نون حيث أمر موسى أن يعهد بالوصيّة إليه ، وهو في سنّ ابن سبع سنين ، ولا استصغر يحيى وعيسى لمّا استودعهما عزائمه وبراهين حكمته ، وإنّما جعل ذلك جلّ ذكره لعلمه بعاقبة الأُمور ، وأنّ وصيّه لا يرجع بعده ضالاً ولا كافراً .

وبأن عمد النّبيّ ﷺ إلى سورة براءة فدفعها إلى من علم أنّ الأُمّة تؤثره على وصيّه ، وأمره

---

(١) المائدة ٣.

(٢) الأعراف ١٤٢.

بقراءتها على أهل مكّة ، فلمّا ولّى من بين يديه أتبعه بوصيّه وأمره بارتجاعها منه ، والنفوذ إلى مكّة ليقرأها على أهلها ، وقال : «إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليّ أن لا يؤدّي عنّي إلّا رجل منّي» دلالة منه على خيانة من علم أنّ الأُمّة اختارته على وصيّه .

ثمّ شفّع بضمّ الرّجل الّذي ارتجع سورة براءة منه ، ومن يوازره في تقدّم المحلّ عند الأُمّة ، إلى عَلَم النّفاق «عمرو بن العاص» في غزاة ذات السّلاسل ، وولّاهما عمرو : حرس عسكره .

وختم أمرهما بأن ضمّهما عند وفاته إلى مولاه أُسامة بن زيد ، وأمرهما بطاعته ، والتصريف بين أمره ونهيه ، وكان آخر ما عهد به في أمر أُمّته قوله : «أنفذوا جيش أُسامة» يكرّر ذلك على أسماعهم ، إيجاباً للحجّة عليهم في إيثار المنافقين على الصادقين .

ولو عددت كلّما كان من أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله في إظهار معائب المستولين على تراثه لطال ، وإنّ السّابق منهم إلى تقلّد ما ليس له بأهل قام هاتفاً على المنبر لعجزه عن القيام بأمر الأُمّة ، ومستقيلاً[1] ممّا قلّدوه لقصور معرفته على تأويل ماكان يُسئَل عنه ، وجهله بما يأتي ويذر .

ثمّ أقام على ظلمه ، ولم يرض باحتقاب عظيم الوزر في ذلك حتّى عقد الأمر من بعده لغيره ، فأتى التالي بتسفيه رأيه ، والقدح والطعن على أحكامه ، ورفع السيف عمّن كان صاحبه وضعه عليه ، وردّ النّساء اللاتي كان سباهنّ إلى أزواجهنّ وبعضهنّ حوامل[2] ، وقوله : «قد نهيته عن قتال أهل القبلة فقال لي : إنّك لحدب على أهل الكفر ، وكان هو في ظلمه لهم أولى باسم الكفر منهم» .

ولم يزل يخطّئه ، ويظهر الإرزاء عليه ، ويقول على المنبر : «كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها ؛ فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه» وكان يقول قبل ذلك قولاً ظاهراً : ليته حسنة من حسناته ، ويودّ أنّه كان شعرة في صدره ، وغير ذلك من القول المتناقض المؤكّد لحجج الدافعين لدين الإسلام .

وأتى من أمر الشورى وتأكيده بها : عقد الظلم والإلحاد ، والغيّ والفساد ، حتّى تقرّر على إرادته ما لم يخف ـ على ذي لبّ موضع ضرره ـ .

ولم تطق الأُمّة الصبر على ما أظهره الثالث من سوء الفعل ، فعاجلته بالقتل ، فاتّسع بما جنوه من ذلك لمن وافقهم على ظلمهم وكفرهم ونفاقهم ، محاولة مثل ما أتوه من الإستيلاء على أمر الأُمّة .

---

(١) إشارة إلى قول أبي بكر «أقيلوني فلست بخيركم» .

(٢) راجع قصّة مالك بن نويرة في ترجمة خالد بن الوليد في هامش ص من هذا الكتاب .

كلّ ذلك لتتمّ النظرة الّتي أوحاها الله تعالى لعدوّه إبليس ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ويحق القول على الكافرين ، ويقترب الوعد الحق الّذي بيّنه في كتابه بقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (1) وذلك إذا لم يبق من الإسلام إلّا إسمه ، ومن «القرآن» إلّا رسمه ، وغاب صاحب الأمر بإيضاح الغدر له في ذلك ، لاشتمال الفتنة على القلوب حتّى يكون أقرب النّاس إليه أشدّهم عداوة له ؛ وعند ذلك يؤيّده الله بجنود لم تروها ، ويظهر دين نبيّه ﷺ ـ على يديه ـ على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

وأمّا ما ذكرته من الخطاب الدالّ على تهجين النّبيّ ﷺ ، والإزراء به ، والتأنيب له ، مع ما أظهره الله تعالى في كتابه من تفضيله إيّاه على سائر أنبيائه ، فإنّ الله ﷻ جعل لكلّ نبيّ عدوّاً من المشركين ، كما قال في كتابه ، وبحسب جلالة منزلة نبيّنا ﷺ عند ربّه ، كذلك عظم محنته لعدوّه الّذي عاد منه في حال شقاقه ونفاقه كلّ أذى ومشقّة لدفع نبوّته ، وتكذيبه إيّاه ، وسعيه في مكارهه ، وقصده لنقض كلّ ما أبرمه ، واجتهاده ومن مالأه على كفره ، وعناده ، ونفاقه ، وإلحاده في إبطال دعواه ، وتغيير ملّته ، ومخالفته سنّته ، ولم ير شيئاً أبلغ في تمام كيده من تنفيرهم عن موالاة وصيّه ، وإيحاشهم منه ، وصدّهم عنه ، وإغرائهم بعداوته ، والقصد لتغيير الكتاب الّذي جاء به ، وإسقاط ما فيه من فضل ذوي الفضل ، وكفر ذوي الكفر ، منه وممّن وافقه على ظلمه ، وبغيه ، وشركه ، ولقد علم الله ذلك منهم فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ (2) وقال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ ﴾ (3) ولقد أحضروا الكتاب كمَلاً مشتملاً على التأويل ، والتنزيل ، والحكم ، والمتشابه ، والناسخ ، والمنسوخ ، لم يسقط منه : حرف ألف ولا لام ، فلمّا وقفوا على ما بيّنه الله من أسماء أهل الحق والباطل ، وأنّ ذلك إن أُظهر نقص ما عهدوه ، قالوا : لا حاجة لنا فيه ، نحن مستغنون عنه بما عندنا ، وكذلك قال : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (4) .

ثمّ دفعهم الإضطرار بورود المسائل عليهم عمّا لا يعلمون تأويله ، إلى جمعه ، وتأليفه ، وتضمينه من تلقائهم ما يقيمون به دعائم كفرهم ، فصرخ مناديهم : من كان عنده شيء من

---

(1) النور ٥٥.

(2) فصّلت ٤٠.

(3) الفتح ١٥.

(4) آل عمران ١٨٧.

«القرآن» فليأتنا به ، ووكلوا تأليفه ونظمه إلى بعض من وافقهم على معادات أولياء الله ، فألّفه على اختيارهم ، وما يدلّ للمتأمّل له على اختلال تمييزهم ، وافترائهم ، وتركوا منه ما قدروا أنّه لهم ، وهو عليهم ، وزادوا فيه ما ظهر تناكره وتنافره ، وعلم الله أنّ ذلك يظهر ويبيّن ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾(١) وانكشف لأهل الإستبصار عوارهم ، وافتراءهم .

والذي بدا في الكتاب من الإزراء على النبيّ صلى الله عليه وآله من فرقة الملحدين ، ولذلك قال : ﴿ وَيَقُولُونَ مُنكَراً مِنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً ﴾(٢) ويذكر جلّ ذكره لنبيّه صلى الله عليه وآله ما يحدثه عدوّه في كتابه من بعده بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ ﴾(٣) يعني أنّه ما من نبيّ تمنّى مفارقةما يعاينه من نفاق قومه ، وعقوقهم ، والإنتقال عنهم إلى دار الإقامة ، إلّا ألقى الشيطان المعرض لعداوته عند فقده في الكتاب الّذي أُنزل عليه ، ذمّه ، والقدح فيه ، والطعن عليه ، فينسخ الله ذلك من قلوب المؤمنين فلا تقبله ، ولا تصغي إليه غير قلوب المنافقين ، والجاهلين ، ويحكم الله آياته بأن يحمي أولياءه من الضلال والعدوان ، ومشايعة أهل الكفر والطغيان ، الّذين لم يرض الله أن يجعلهم كالأنعام حتّى قال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(٤) .

فافهم هذا واعلمه ، واعمل به ، واعلم أنّك ما قد تركت ممّا يجب عليك السؤال عنه أكثر ممّا سألت عنه ، وإنّي قد اقتصرت على تفسير يسير من كثير لعدم حملة العلم ، وقلّة الراغبين في التماسه ، وفي دون ما بيّنت لك بلاغ لذوي الألباب» .

قال السائل : حسبي ما سمعت يا أمير المؤمنين ، شكراً لله لك على استنقاذي من عماية الشرك ، وطخية(٥) الإفك ، وأجزل على ذلك المثوبات ، إنّه على كلّ شيء قدير ، وصلّى الله أوّلاً وآخراً على أنوار الهدايات ، وأعلام البريّات ، محمّد وآله أصحاب الدلالات الواضحات ، وسلّم تسليماً كثيراً.

---

(١) النجم ٣٠.

(٢) المجادلة ٢.

(٣) الحج ٥٢.

(٤) الفرقان ٤٤.

(٥) الطخياء : الليلة المظلمة.